الفصل السادس

التربية والتغير

التربية والتغير*

إذا كانت هذه هي حقيقة التغير ، وهذه هي أبعاده ، وإذا سلمنا بأنه أمر حتمي، تمر به جميع المجتمعات ، أو يمر هو بها ، بغض النظر عن سرعته في بعضها واعتداله أو بطئه في بعضها الآخر . وإذا كانت التربية هي الإعداد للحياة، أو هي الحياة ذاتها – كما سبق وبينا من قبل – فما هي يا ترى العلاقة بين ذلك التغير . . وهذه التربية . . ؟

بمعنى هل هناك دور للتربية – داخل المجتمع – لمواجهة التغير وللتعامل مع عوامله ومسبباته وآثاره ونتائجه . . ؟ . . وإذا كانت الإجابة بنعم . . فما هي أبعاد ذلك الدور التربوي . . ؟

هل يمكن أن تتدخل التربية لتقود ذلك التغير لتحقيق أهداف المجتمع الذي تعمل له . . ومن أجله . . ؟

أم أن دورها يتبعه . . ؟ بمعنى أنها تسير خلفه ، في الاتجاه الذي يحدث فيه دون تدخل منها بالتعديل أو التغيير . . ؟

أم هل تستطيع التربية – في أي مجتمع – أن تدفن رأسها في الرمال وتدعي عدم المسؤولية عما يجري حولها من تغير وتبدل . . ؟

لعلنا نحاول ، خلال هذا الفصل ، أن نستكشف الإجابات على هذه الأسئلة، والله المعين .

مما لاشك فيه أن الاكتشاف والاختراع يشكلان نقطة البداية في أي تغير يحدث

(*) سبق للمؤلف أن كتب هذا الفصل في كتاب له بعنوان : « التربية ومشكلات المجتمع في دول الخليج العربية» ، وقد أورده هنا لمناسبته لما نحن بصدده عن التغير الذي حدث في جزيرة العرب، بعد تربية الرسول، صلى الله عليه وسلم، للرعيل الأول من المسلمين.

في أي مجتمع[1] وعندما نتحدث هنا عن الاكتشاف والاختراع ، لا ينبغي أن تنصرف أذهاننا فقط إلى الاكتشافات الخطيرة التي نسمع عنها ، أو الاختراعات الحديثة كالقنبلة الذرية أو النووية أو قنبلة الكوبالت أو النيترون ، أو الموجات اللاسلكية . . أو أية اكتشافات أو اختراعات في ميادين العلم المختلفة ومجالاته المتنوعة .

وإنما قد يكون هناك اكتشاف يبدو بسيطاً في نظرنا الآن ، ولكنه ترك آثارا لا تمحي في حياة البشرية كلها . ولو رجعنا إلى التاريخ الإنساني لوجدنا أن التوصل إلى إشعال النار بواسطة ضرب قطعتين من الحجر ببعضهما كان مقدمة لعصر جديد عرف الإنسان القديم بواسطته كيف يطوع الحديد لإرادته .

كذلك فإن اختراع السن المدببة لقطعة من الحجر كان بداية للتوصل إلى اختراع الرماح التي صنعت من غصون الأشجار ، وركبت فيها بعض الرؤوس الحديدية لتصبح أداة حربية خطيرة تقرر مصير معركة .

ولا يبعد عن هذا اختراع العجلة ، وكيف استطاعت بعض شعوب آسيا الوسطى أن تستخدمها حربياً لتهزم المصريين القدماء ، والذين لم يستطيعوا طردهم من أراضيهم إلا بعد أن استوعبوا الاختراع الجديد ، وتعلموه . . وعلموه لأبنائهم - وهذا دور خطير من أدوار التربية - ثم قاتلوا أعداءهم - الهكسوس - به ، وانتصروا عليهم وطردوهم من بلادهم محررين أنفسهم وأراضيهم من استعمارهم .

ومن هذا المثل البسيط وجدنا أن المجتمع قد توصل إلى الاكتشاف أو الاختراع ، سواء بجهده هو أو بجهد غيره من الشعوب الأخرى ، عن طريق المحاكاة أو التقليد والاقتباس ، وأن التربية لم تقف من هذه المستحدثات موقف المحايد أو

(1) Social Change, Sources, Pattens & Consequences. Edited by Amitai Etzioni & Eva Etzioni, Basic - Book Inc, Publishers, N.Y. 1964, p. 431.

السلبي ، وإنما تبنتها وعملت على نشرها وتوصيلها إلى الأجيال الجديدة الصاعدة ، كي تعد أفرادها للحياة مسلحين بالعلم والخبرة والجديد المتغير.

ويمكن بطبيعة الحال أن نعمم هذا المثال على عصرنا الحاضر ، إذ أن المنهج في البلدان المتقدمة ينبع من الحركة التي لا تهدأ في المجتمع ، وذلك لأن القائمين عليه يغيرونه ويطورونه ويعدلونه ، حسب كل جديد مفيد يقع في المجتمع ، بل وحسب كل جديد تواجهه الجماعة ، سواء كان ذلك الجديد اختراعاً أو اكتشافاً مفيداً ، أو كان تحدياً خطيرا واجهته الجماعة في حياتها .

ولقد واجه الشعب الأمريكي صدمة عنيفة عام ١٩٥٧م حين أطلق الاتحاد السوفيتي أول قمر صناعي دوار في الفضاء ، فأصيبت الأمة الأمريكية بما عرف في تاريخ تربيتها بإسم «حمى سبوتنيك» نسبة إلى اسم ذلك القمر ، وظهرت فيها حركة هائلة ، على جميع المستويات ، نقداً للذات ، وبحثاً عن أسباب تأخرهم عن السوفييت ، وانصب كل ذلك على التربية ، وبالذات على المناهج التي تقدم فيها ، وعلى طرق تدريسها ، وخاصة في مجالات الكيمياء والطبيعة والرياضيات ، وأعقب ذلك حركة هائلة لتطوير تدريس تلك المواد ، أسهم فيها أساتذة الجامعات بكل ثقلهم ، كي تخرج المدارس أجيالاً من الشباب يفوقون أبناء الروس . . ولم يهدأوا حتى وضعوا أول رجل لهم على سطح القمر في ١٩٦٩م ، في سابقة لم تلحق بها أمة حتى الآن ، على الرغم من مرور أكثر من عشرين عاماً.(١)

(1) - David Tanner: Secondary Curriculum, Theory & development. The Macmillan Company .N.Y.1971.
- David Tanner & Laurel : Curriculum Development Theory into Practice, Macmillan Publishing Co., Inc., N.y., 1975.

وأيضاً راجع : محمد عبد العليم مرسي : نزيف العقول البشرية، عالم الكتب، الرياض، ١٤٠٢هـ -١٩٨٢م.

- وكذا : محمد عبد العليم مرسي : هجرة العلماء من العالم الإسلامي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

كـذلك فإن المجتمع الأمـريكي - أيضـاً - قـد ووجه في السبعينـات من هـذا القرن، عقب حرب اكتوبر/ رمضـان المجيدة (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م) بموقف صعب وخطير ، نتيجـة للحظـر البترولي الـذي فـرضه العـرب على إمـداداتـه إلي الغـرب ، وكذلك نتيجة لارتفاع أسعار ذلك البترول ، بشكل لم يعرفه الغرب من قبل ، خاصة وأنه كان قد تعود على أن يصله البترول بأسعار رخيصة جداً . . ربما شبه رمزية . . !!

وحين اشتدت الأزمة بـالأمة الأمريكية عام ١٩٧٤م ، تحرك المسـؤولون فيها ، على أعلى مستـوى ، كما تحرك العلماء والأسـاتـذة ، في كل مـوقـع من مـواقع العمل العلمي . . في الجامعات بأقسامها العلمية المختلفـة ، كما في مراكز البحوث العلمية العملاقـة التابعـة للجامعـات . . والحكومـة . . بل والشركات الخاصـة ، ونشطت أجهزة الإعلام المختلفة وكلها كانت تصب في قناة واحدة هي قناة التربية .

فمن خلال التربيـة علموا المواطنين . . طـلاباً وغيرهم ، جـذور المشكلة . . وأبعادهـا . . كما بينوا لهم آثارها المتـوقعة في المستقبل القريب والبعيد ، فيما لـو ظلوا على حـالتهم الأولى من كثـرة الاستهلاك والإسراف في استنـزاف الطـاقة ثم بينـوا لهم السبل الصحيحـة . . العلمية . . والعمليـة . . للحد من ذلك الاستهـلاك ، الحد التطوعي . . الذي لايقـوم إلا على الفهم . . والإقناع . . وهذان الأخيران لايتمان إلا من خلال عمل التربية والمربين .

وفوجئنا نحـن هنا في الخليج ، كما فوجيء غيرنا كثيرون في العـالم ، بانخفاض شديـد في الطلب على سلعة البترول ، وصحـب انخفاض الطلب انخفـاض حاد في أسعار البترول ، وما كان ذلك ليتم بمجرد قرارات حكومية جامدة .

إنما كـان الهدف الـواضح أمـام المسـؤولين الـواعين هـو . . عقل المواطن . . وإحساسـه بالمشكلـة التي يعاني منهـا المجتمع ، وإثارتها في أعماق وعيـه ، وتوضيح

البدائل المطروحة أمامه ، وتبيان أهمية كل منها وإيجابياته وسلبياته ، ثم يترك بعد ذلك ليحزم أمره ويقر رأيه . ولم يحدث في التاريخ أن خذلت التربية أمة اعتمدت عليها . . وسارت على هداها . . والنتائج واضحة لكل ذي فكر سليم .[1]

وفي هذا المجال . . مجال التغير والتربية ، هل يمكن أن ننسى التجربة اليابانية التي تكاد تقترب من حدود المعجزة . . . ؟

فهذا هو مجتمع ناهض متقدم ، أحست قياداته السياسية أنها قادرة عسكريا ، وأنها تستطيع أن تضرب من حولها بعنف وقوة ، وبأنها تستطيع أن تفرض إرادتها على غيرها من الشعوب المحيطة بها فلم تتردد ، واستخدمت قوتها العسكرية الحديثة التدريب ، في ضرب الصين ، جارتها الكبرى ، بل وثنت بالاتحاد السوفيتي بعد ذلك بعشر سنوات في معارك مهينة عام ١٩٠٥م .

ونجحت اليابان فيما مضى ، فانفتحت شهيتها لمزيد من الحروب ، ومزيد من الانتصارات ، وكانت آخر مغامراتها الأسطول الأمريكي في بيرل هاربور ، مفتتحة الحرب العالمية الثانية مع الولايات المحدة الأمريكية .

وما كانت الحياة لتمضي هكذا سهلة ميسرة بالنسبة لشعب من الشعوب ، مهما كان ، فما من أمة قوية استمرت متسيدة لفترة طويلة في تاريخ العالم إلا وجاءتها قوة أخرى أقوى منها وأعتى فاذاقتها مثلما فعلت هي مع غيرها . . وربما أمر ، وكان هذا هو حال اليابان التي أيقظت العملاق الأمريكي من سباته ، كما قال قائد سلاح الطيران الياباني ذاته . .

---

(١) للمزيد من الإيضاح حول هذا الموضوع ، راجع كتاب « التربية وقضايا الطاقة» تأليف الكاتب الأمريكي رودني ف . ألن . والمشهور باهتمامه بقضايا الطاقة ، والذي أعد ٧٥ برنامجاً تربوياً حولها ، ترجمة الكاتب ، وإصدار مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م .

لقد جندت الأمة الأمريكية كل مصادرها . . المادية والبشرية . . لكسب الحرب، فدارت مصانعها لتعمل أربعاً وعشرين ساعة في اليوم لتنتج ملايين البنادق والمدافع ومئات الآلاف من السيارات الحربية والدبابات والطائرات ، ناهيك عن السفن الحربية العملاقة ، وخاصة حاملات الطائرات .

وبطبيعة الحال فإن هذا الإنتاج العسكري الهائل كان مدعماً بأنواع أخرى من الإنتاج المدني الذي يسند الجهد الحربي ويدعمه، فهناك مصانع الغذاء التي لم تكن تتوقف كي تمد جيوش أمريكا . . وأحياناً جيوش حلفائها بمئات الآلاف من الأطنان من الغذاء ، ومثلها مصانع الملابس ، والأدوات الطبية . . إلخ .

وفي نفس الوقت نشطت أجهزة البحث العلمي في كل مجال ، وتوج عمل العلماء الأمريكيين في مجال استخراج الماء الثقيل ، المطلوب لصنع القنبلة الذرية ، تلك الكارثة التي لم يتردد القادة السياسيون والعسكريون في الولايات المتحدة الأمريكية في استخدامها ، كسابقة لم تحدث من قبل في التاريخ ، فألقوها على رؤوس الآلاف من أبناء الشعب الياباني في مدينتي هيروشيما ونجازاكي ، حيث قضت قنبلتان فقط على حياة أكثر من أربعمائة ألف شخص ، في دقائق لا تذكر . . !!

وسلمت اليابان . .

وتنازل الإمبراطور ، ابن الشمس ، كما كانوا يطلقون عليه هناك ، عن سلطانه الذي كان الشعب الياباني يعتبره مقدساً .

وياله من تغير . . !!

ودمرت المصانع . . وخربت المدارس . . وأحرقت المزارع . . وأتلفت الطرق . . وهام في شوارع المدن اليابانية ملايين البشر على وجوههم بلا مأوى ، وكان من

بينهم ملايين التلاميذ الذين خربت مدارسهم ، والطلاب الذين تحطمت جامعاتهم، بالإضافة إلى الخسارة الفادحة التي ضربت التعليم الياباني في الصميم بقتل آلاف من المدرسين الذين دخلوا الخدمة العسكرية على مدار سنوات الحرب .

وعقب توقيع وثيقة الاستسلام في ١٩٤٥م ، نفضت الأمة اليابانية عنها كابوس الهزيمة العسكرية الماحقة ، وذهبت تبحث عن مستقبل جديد لها بين أمم الأرض ، فكانت وسيلتها . . التربية .

ذهبت إليها . . وهي واثقة من صدق حدسها ، ومن حسن اختيارها . . والقت بأحمالها ومشكلاتها . . بل وبمآسيها عند أعتابها . . ولم تخذلها التربية . . كما هي عادتها ، مع الأمم التي تعطيها حقها ، والتي تتفهم قوتها ودورها ، فدربت شبابها وعلمتهم في مدارسها ومعاهدها وجامعاتها ، بعد أن رصدت للتعليم ميزانية ضخمة بلغت نسبتها من دخلها القومي ١٢٪ ، بينما إنفاقها العسكري لم تزد نسبته عن ٧,٧٪ فقط . .

وأنفقت الأموال في مواضعها الصحيحة ، وبذلت الجهود الصادقة الأمينة والواعية ، فاذا اليابان اليوم لديها ١٠٠٠ جامعة ومعهد عالي ، وآلاف من مختلف أنواع المدارس وطبعت الكتب بمئات الآلاف ، وترجم أكثر منها عن معظم لغات العالم ، كما أن دورياتها العلمية تفوق العشرة آلاف . . !!

والشعب الملهوف على استعادة مكانته تحت المشمس . . يقرأ . . ويتعلم . . ويفهم . . ويطبق . . ويعمل . . وينتج ، فإذا إنتاجه يكتسح أسواق العالم ، حتى أسواق الدول الصناعية الكبرى ذاتها ، والتي بدأت تصرخ من العملاق الاقتصادي الياباني الهائل(★) وما كان ذلك ليتم لولا لجوء اليابان إلى . . التربية ، تواجه بها

(★) في اليوم الأول من يناير ١٩٨٧م أذيع من راديو المملكة العربية السعودية أن العجز المالي للولايات المتحدة الأمريكية قد بلغ قرابة الستين (٦٠) بليونا من الدولارات لصالح اليابان، ولازال هذا العجز موجوداً ونحن قرب نهاية العام ١٩٩٦م.

متغيراتها الجديدة الصعبة ، فتحولها إلى الاتجاه الـذي ترتضيه ، بحيث يسير التغير في الاتجاه الذي يخدم المجتمع الياباني ، ويعمل على تقدمه ورفعته . (★)

ومما لاشك فيه أن جـانباً كبيراً من الحديث السابق عن اليابـان ، وعن مأساتها التي أنقـذتها منها التربيـة عقب هزيمتهـا القاسيـة في الحرب العالميـة الثانيـة ، هذا الكلام ينطبق في جزء كبير منه على الوضع في ألمانيا .

فهذا شعب قاده مسؤولوه إلى خوض غمار حروب عاتية ضد جيرانه في أوروبا ، على أسـاس دعـاوي بـاطلـة من التفـوق العنصري ، والاعتـداد بـالمجـد العسكـري السالف منذ أيام بسمارك ، والقوة التـي اكتسبتها ألمانيا ، عقب الحرب العالمية الأولى والتي استطاعت أن تـدور حول بنود اتفاقيـاتها ، بحيث دربت شباباً أكثـر بكثير مما تسمح به هـذه الاتفاقيات ، على شـؤون القتال ، كما أنها صنعت أسلحة كـان محرما عليها إنتاجها ، وبكميات ضخمة .

ثم بـدأت ألمانيـا - تحت زعـامة هتلـر - تهاجم من حـولها ، من دول أوروبـا الغـربيـة الصغيرة ، ثم اتجهت إلى فـرنسا فـأذلتها في حـرب خـاطفـة بشكل مهين ، وبدأت في ضرب الإنجليز في عقر دارهم ، حتى أصبحت لنـدن مدينة محطمة بفعل القنابل الألمانيـة ، ولم ينج الاتحاد السوفيتي منهـا في الشرق ، وانهزمت قواتـه متقهقرة حتى لينينجراد .

بل إن القوات الألمانيـة قد عبرت البحر المتـوسط ، في قسمه الغـربي ، وبدأت في التقدم ناحيـة وادي النيل بقصد احتلال مصر وطرد القوات البريطـانية منها ، ثم قطع مـواصـلاتها إلى الهنـد . . درة التـاج البريطـاني آنـذاك ، فتقـدم «روميل» من

(★) حول هذا الموضوع اقـرأ كتاب : التربية في اليابان المعاصرة، تأليف إدوارد ر. بـوشامب، ترجمة محمد عبد العليم مرسي، إصدار مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ١٤٠٦هـ-١٩٨٥م .

الصحراء الغربية ، تسبقه سمعته العسكرية المدوية .

وتدخلت الولايات المتحدة الأمريكية ، في هذه الحرب ، وألقت بثقلها الرهيب فيها ، وجاءت قواتها وعتادها عبر المحيط الأطلسي لتصب الحمم على رؤوس القوات الألمانية في غرب أوروبا ، على الشواطيء البريطانية والفرنسية والهولندية وغيرها ، وذهبت معوناتها العسكرية وغيرها إلى الاتحاد السوفيتي ، عبر القطب المتجمد الشمالي ، وقرب نهاية الحرب صبت عشرات الآلاف من الطائرات الأمريكية حمولاتها الرهيبة على مدن ألمانيا ، مدمرة الحياة فيها في كل مرفق . . من المصانع . . إلى المزارع ، ومن المدارس . . إلى الجامعات ووقفت قوات دول غرب أوروبا على أقدامها وبدأت تساعد في الحرب ، وتقدم السوفيت من الشرق .

وهزم العملاق الألماني . . كما كان لابد وأن يهزم . . مثله مثل نظيره الياباني . . في أقصى الشرق وكان الوضع في ألمانيا ذا قسوة خاصة ، حيث مزق الوطن الواحد إلى شطرين ، شطر شرقي جثم على صدره السوفيت ، وسمي ألمانيا الشرقية ، وقسم آخر غربي احتله الحلفاء (أمريكا - انجلترا - فرنسا) ، وسمى ألمانيا الغربية ، وعرف الشعب الألماني طعم الهزيمة والتمزق والاحتلال .

وبعد توقيع وثائق الاستسلام ، بدأ الشعب الألماني ، خاصة في ألمانيا الغربية ، يزيل الحطام ، ويطفيء الركام ، ويدفن الأشلاء ، ويزيل أنقاض ما خرب ، ويفكر في المستقبل الغامض الذي ينتظره .

وظهر من بين رجاله أفراد ذوو بصيرة ثاقبة وعزيمة لاتلين ، فاتجهوا فوراً للتربية . . طلباً للإنقاذ وسعياً وراء المخرج ، وكان اهتمامهم كبيراً بالتربية في صورها العملية والتدريبية . . وبنيت المصانع هنا وهناك واتصلت خيوط العلم في الكليات والمعاهد الصناعية بخطوط الإنتاج في المصانع .

وبدأ العالم يقرأ عن الإنتاج الألماني المتفوق ، وعن المخترعات الألمانية المتميزة، وبدأ المارك الألماني ينافس الجنيه الأسترليني . . بل والدولار الأمريكي ، وأصبح مثله في القوة - نتيجة للإنتاج الهائل - مثل نظيره الين الياباني في أقصى الشرق من آسيا .

ووضح للعالم أن الدولتين اللتين هزمتا شر هزيمة في الحرب العالمية الضروس هما الدولتان اللتان تقودان جزءاً كبيراً من اقتصاد العالم الحديث ، وأنهما تتحكمان في كثير من صناعاته وصفقاته واتفاقاته التجارية ، وحين يتحدث الناس من عمالقة الاقتصاد في العالم من الدول ، لابد وأن يأتي ذكر اليابان . . وألمانيا(★) . والفضل في كلتا الحالتين هو للاستثمار الرائع في العنصر البشري . . والذي لا وسيلة له ، ولا سبيل إليه إلا . . التربية[1] !!!

وهكذا . . مرة ثانية . . وثالثة . . أثبتت التربية أنها أفعل شيء في حياة الشعوب التي تعي معناها وقوتها كما أثبتت أنها - أي التربية - تستطيع أن تقود التغير في الوجهة الصحيحة السليمة ، التي تأخذ بالمجتمع إلى الأمام . . نحو التقدم .

ولعل الأمثله السابقة ، من الشرق والغرب ، تبرر وتوضح ما كتبه كتاب «دائرة معارف التقويم التربوي» عن الأعباء الثقيلة التي تلقيها تغيرات العصر على أكتاف التربية والقائمين على أمرها ، وذلك حين قالوا « إن التغيرات التي تحدث في عالم اليوم في المجتمع ، سواء في المجالات السياسية أو الاقتصادية ، أو في مجالات

(★) في صبيحة اليوم الأول من ديسمبر ١٩٨٦م أذيع في الراديو السعودي أنه لأول مرة في التاريخ فاقت قيمة الصادرات الألمانية نظيرتها الأمريكية ، حيث بلغت ٢٢٠٠ بليون دولار خلال عام ١٩٨٥م . . !!

(١) هانز ب . لينجنز: التربية في ألمانيا الغربية نزوع نحو التفوق والامتياز، ترجمة محمد عبد العليم مرسي، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م .

التكنولـوجيا المختلفة ووسـائل الاتصال المتنـوعة ، تلقى عبئاً ثقيـلاً على التربية وعلى جميع المؤسسات العاملـة في ميدانها ، كي تواجهها ، وتتعـامل معها حتى لاتتخلف عن العصر.(١)

ويمس هـذا الجانب أحـد كبار رجـال التربيـة في عـالمنا العـربي ، د. الهادي عفيفي ، عليه رحمة اللـه ، فيكتب عن حساسيـة التربية وما ينبغي أن تكـون عليه ، فيما يتعلق بما يجري في المجتمع حولها من تغيرات « إن التربية ينبغي أن تكـون حساسة للتغيرات التي تحدث في المجتمع ، وهـذه الحسـاسية تفـرض عليهـا أن توثق صلتهـا بالمجتمع ومجريات الأمور فيه ، وبالمشكلات التي تواجهه» .(٢)

بل إن بعض الكتـاب الأمـريكيين لا يكتفـون بالأدوار التي تلعبهـا التربيـة في مواجهة مشكـلات مجتمعها ، وإنما يقولون بأن هـذه التربية ينبغي حتى أن تتعمق في مشكلات أفراد المجتمع الشخصية . ولعلهم في ذلك يريدون أن يبيّنوا أن الفرد الذي تـواجهه بعض المشكـلات في مجتمعـه ، نتيجة لبعـض التغيرات ، هذا الفـرد يصبح عضواً حيـاً وفعالاً في المجتمـع إذا تدخلت التربيـة وحلت مشكلاتـه هو ، وبـالتالي يكـون إسهامـه وإنتاجـه في المجتمع أفعل وأفضل . . وهل المجتمع إلا مجموعـة من الأفراد . . (3)

هذا ويضرب لنا مؤلفو كتاب «التغير الاجتماعي» ، والذي يعتبر مرجعاً حيوياً في الميـدان ، مثـلاً على بعض التغيرات التي تحدث في المجتمـع ، وعـلاقـة ذلك

---

(1) Encyclopedia of Educational Evaluation, Jessey Bass publishers, Washington, 1975.

(٢) محمد الهادي عفيفي : التربية والتغير الثقافي، الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م، ص٣٤٩ .

(3) Morise Kogan and Margeret pope (Ed) The Challenge of change NFER Publishing Company, Windsor, 1972.

بالتربيـة ، وذلك من خلال الصناعـات الجديدة التي يتبناهـا المجتمع ، ومن خلال الأنماط الاستهـلاكية للسكـان وعـاداتهم في حيـاتهم ، وأن التربية عليهـا – في هـذه الحالة – أن تستجيب لهذه التغيرات ، وأن تكون واعية لحدوثها ، فتـأخذها لتدرسها ولتبين آثارها ، وكيفية مواجهتها والتعامل معها .

وهم يقـولـون في هـذا المجـال : إن الصنـاعـة يطلق عليهـا مصطلح «المتغير المستقل Independent Variable» وذلك لأن الصنـاعة جـاءت أولاً وأثرت في المجتمع . . سلبـاً أو إيجابـاً ، ثم جـاء فعل التربيـة ، بعـد ذلك تـابعـاً لفعل الصناعة .(١)

ولعلنا نتـوقف هنا لنوضح هـذا المعنى ، من واقع بعض دول الخليج العربي ، فنقول إن بعـض هذه الدول أخـذ يتجه بقـوة نحو التصنيع ، وذلـك كما هو الحال في المملكـة العـربية السعـوديـة ، حيث نجـد الأمثلة على هـذا التصنيع في المشروعـات الضخمة في كل من الجبيل وينبع .

إن إدخال التصنيع بكثافـة يغير كثيراً من عادات الناس وتقاليـدهم ، وأحياناً قيمهم ، كما أنه قد ينتج عنه بعض المشكلات ، خـاصة فيما يتعلق بالعمالة ، عندما ينتقل أفـرادهـا من الـريف ، أو من مضـارب البـدو ، للسكن قـرب المصـانع التي يعملـون فيهـا ، حيث تتغير نظـرتهم إلى الحياة ، في ضـوء أعمالهم الجديـدة ، متأثـرة بـالقيم المادية التـي بدأوا يعيشـونها ، عـلاوة على تأثرهـم – بشكل جديـد – بعنصر الوقت الذي أصبح يلعب دوراً بارزاً في حياتهم .

ولانغفل هنـا طـريقتهم وأسـاليبهم في قضاء وقـت الفراغ ، في المدينـة وقـرب المصانع ، كما لايغفل أيضاً ابتعادهم عن الروابط العائلية التي كانت تربطهم بذويهم

---

(1) Social Change, Op. Cit,. p. 459.

في الريف ، وتأثرهم الذي كان بالعلاقات المباشرة هناك ، التي حلت محلها مجموعة مختلفة تماماً من العلاقات ، تحكمها قيم لا تمت إلى القرية بصلة ، وحول هذا المعنى يقول محيى الدين صابر : « إن حدوث التغير في أي جانب من جوانب المجتمع لا يقتصر أثره على هذا الجانب فحسب ، بل هو يتعداه إلى كثير من الجوانب الأخرى في سلسلة متتابعة ومتزايدة من ردود الأفعال ، ذلك وأن تعرض عنصر حضاري لتغيير جوهري ، يعرض النسق الحضاري كله للتغيير ، إن الوقائع والنظم الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية ، وسائر التنظيمات القائمة في المجتمع ينبغي أن تتجاوب تجاوباً عميقاً مع هذا التغير الجديد»(١)

ومما لاشك فيه أن للتربية الدور الأكبر في تغيير القيم التي ترتبط بالأوضاع الجديدة وإحلال قيم جديدة محلها ، وكذلك في خلق الوعي لدى المواطنين لتقبل الجديد ، وللتكيف معه وفي حث الناس على أن يسلكوا مسلكاً معيناً ، وغرس العادات التي تتطلبها المواقف الجديدة ، الناجمة عن التغير الجديد .

والتربية عندما تقوم بإحداث التوازن في المجتمع عن طريق توضيح العلاقات ، وشرح المستحدثات ، وما يصاحبها من تغيرات ونتائج ، إنما تقوم بوظيفة هامة من وظائفها ، حتى لا يختل البناء الاجتماعي ، « إن الكثير من المخترعات الحديثة إذا ماتركت وآثارها ، دون أن تكون هناك خطة تربوية لاستيعاب هذه التغيرات وشرحها وتحديد موقف المجتمع منها ، فإن هذه الآثار تكون ضارة بالمجتمع في كثير من الأحيان (٢) .

(١) محي الدين صابر: التغير الحضاري وتنمية المجتمع ، سرس الليان ، ١٩٦١م ، ص ، ٣٠٧

(٢) هناك عدد من الكتابات والرسائل العلمية حول هذا الموضوع منها :

- فتح الله سعد هلول ، محمد رياض الغنيمي : الآثار الاجتماعية والاقتصادية للتصنيع .
- ابراهيم عبد الحمد أبو الغار : الآثار الاجتماعية والاقتصادية للتصنيع في الجمهورية العربية المتحدة .
- أحمد النكلاوي : التغير والبناء الاجتماعي .
- حسن الساعاتي : التكنولوجيا والمجتمع .
- محمد عبد العليم مرسي : دور التربية في مواجهة الآثار الاقتصادية والاجتماعية المترتبة على كهربة الريف ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية ، جامعة عين شمس ، القاهرة ، ١٩٧٥م .

وكل هـذه التغيرات السابقـة النـاتجة عن التحضر والتصنيع وإدخال عنـاصر التكنـولوجيـا المتنوعـة إلى المجتمع ، ينتج عنهـا تغيرات عميقة الأثـر في قيم المجتمع وعـاداته وتقـاليده ، وكل هـذه التغيرات . . هنـا . . هي ومعها أسبـابها من تصنيع وتكنولوجية ، تمثل العامل المستقل ، الذي سبق الحديث عنه .

والتربيـة بمـلاحقتهـا للصنـاعـة والتكنـولـوجيـا والتحضر النـاتج عنهما ، وبملاحظتها للتغير الحادث بشأنها في المجتمع ، وبمحاولاتها المستمـرة رصد مظاهر هذا التغير، ودراسـة أسبابـه ونتائجـه ، ومحاولاتها تكييف المجتمع وإعـداده لمواجهة كل ذلك تمثل هنا . . العامل التابع . . لأنها تبعت كل ذلك فعلاً وحدوثاً .

ولكن قد يحدث أن تتدخل التربية ، من خلال معـاهدها ومؤسساتها المختلفة من الجامعات والمدارس الصناعيـة ومعاهد التدريب ، بإعـداد الناس وتدريبهم كي يكونوا صناعاً مـاهرين ، أو مهندسين فنيين مبدعين ، أو خبراء رفيعي المستوى ، أو هي قد تتـدخل بإعادة التـدريب . لرفع مستوياتهم الإنتاجيـة ، وهي هنا تصبح – أي التربية – العامل المستقل .

وفي هذه الحالة تصبح الصنـاعة العامل التابع ، لأنها سـوف تستفيد من عمل التربية ، ومن جهود العاملين في ميدانها ، ولعل هـذا هو الذي دفع واحداً من رجال التربية الغـربيين إلى القول بأن « « التربيـة لا ينبغي أن يكون دورهـا دور التابع فقط ، وإنما يجب أن تأخذ المبادرة الفعليـة ، وأن يكون دورها هو دور القـائد والموجه ، سعياً وراء مصلحة المجتمع ، وتحقيقـاً للمنفعة فيه ، وعمـلاً على تكييف أفراده لكل تغير جديد يعتري الحياة في المجتمع ، أو يعترض مجرى الحياة فيه» .

إن التغيرات الحاصلـة في المجتمع ، مهما كـان نـوعهـا ، ومهما كـان اتجاهها وسرعتها ، هي بـالدرجة الأولى مسؤولية التربيـة . إن هذه التغيرات « ينبغي ألا تترك

في سيرها غير المنتظم ، بل يجب أن تقوم على أساس من التفكير والبصر ، ليتوافر لها التوجيه والتقدم ، ومن ثم ينبغي ألا تقنع التربية بما هو كائن ، بل ينبغي أن تنظر إلى الأمام ، أي إلى المستقبل . . لتدرك ما قد يحدث من أزمات وتوترات اجتماعية ، وتحاول الإسهام بنصيبها في حلها ومواجهتها ، وتزويد الناشئين - من أجل ذلك - باتجاهات عقلية اجتماعية تتناسب مع هذه المسؤولية الجديدة .

ولا تقف مسؤولية التربية عند هذا الحد ، إذ يجب ألا تتقيد في تصورها بما يحدث من تغير بالفعل ، بل عليها أن تكون قوة إيجابية لخلق أنواع أخرى من التغيرات المرغوب فيها ، من هنا يصبح عليها مسؤولية أخرى ، هي الاهتمام بتنمية القيادة الاجتماعية القادرة على التفكير والابتكار»[1]

لقد سادت فترة من التاريخ الإنساني كانت التربية فيها تقوم بدور المحافظ على ثقافة المجتمع . . كما هي . . دون تدخل فيها بالنقد أو محاولة التوجيه ، أو التعديل ، ولقد عرفت هذه الوظيفة « بالوظيفة المحافظة للتربية » .

حقيقة إن التراث الثقافي Cultural Heritage هو ملك المجتمع ، ويجب المحافظة عليه بالفعل ، ولكن من جانب آخر فإن التربية هي وسيلة المجتمع لتعليم الأجيال الصاعدة كل شيء عن الجماعة التي يوجدون فيها ، حتى يستطيعوا العيش ضمن إطارها ، وفي ضوء الأهداف التي ارتضتها لنفسها .

وبما أن التربية تتحمل هذا العبء ، فإنه يصبح من واجبها أن تتحمله بأمانة بحيث تدل المجتمع على نواحي النقص والقصور في تلك الثقافة ، وفي ذلك التراث الثقافي ، بحيث تستطيع الأجيال الصاعدة أن تنقيه مما يوجد فيه من شوائب تكون قد علقت به خلال تكونه على مر الزمان .

---

(١) محمد الهادي عفيفي ، مرجع سابق ، ص ص ١٤٤-١٤٥ .

إن التربيـة بمـؤسسـاتها المختلفـة – على سبيل المثـال – لا تستطيع أن تقف مكتـوفة الأيـدي أمام استخـدام سيء لمصـادر الثروة الطبيعيـة في مجتمعها أو تلـويث البيئة ، إن عليها أن تنبـه مجتمعها إلى ذلك ، وأن ترى أفراده أمثل الطـرق والأساليب لتفادي ذلك .[1]

ليس هـذا فحسب ، بل إن بعض المربين يتحمسون هـذه الأيام لفكـرة أخرى مؤداهـا أن المدرسة التي هي المؤسسـة التربويـة الأولى التي عهد إليهـا المجتمع بتربية أجيـالها الصـاعـدة ، لا ينبغي أن يقف دورهـا فقط عنـد مجرد حل المشكـلات التي يـواجههـا المجتمع ، وإنما عليهـا أن تعد دراسـاتها المتعمقـة . . مسبقـاً . . بحيث لاتنتظـر النغير حتى يقع ، وإنما عليهـا أن تتـوقع هـذا التغير ، كما يجب أن تتـوقع المشكلات التي يمكن أن تصـاحبه في كل مجال ، فتـدخلها في مناهجهـا ومقرراتها ، وتدرسهـا للطلاب ، بحيث لايفاجئهم التغير ، ولا تفـاجئهم مشكلاتـه ، وما ينتج عنها من مضاعفات سيئة .[٢]

وفي التاريخ الحديـث للتربية نجد أن هنـاك حالـة خاصـة مرت بها الـولايات المتحدة الأمـريكية ، خـلال بدايـة الثلاثينـات من هذا القـرن ، وهي حالـة الكساد العظيم The Great Depression ، وهي الفترة التي عانت فيهـا تلك الأمة – بشكل حـاد لم يسبـق لـه مثيل – من التـدهـور الاقتصـادي والكسـاد الـذي حل بإنتـاجها ، وخـاصـة عندمـا انخفضت أسعار القطن الأمـريكي الـذي كان يصـدر للخارج ، بحيث كانت أسر أمريكية كثيرة العـدد ، يعمل أفرادها جميعاً بهمة ونشاط

(1) John Jarolimek:The School in Contemporary Society, An Analysis of Social Current Issues & Forces. The Macmillan Publishing Company, N.Y,1981,p.6.

(2) Ibid,.Q.75.

- صغاراً وكباراً - طوال اليوم . . فقط كي يؤمنوا لأنفسهم شيئاً يقتاتونه . . !!

ولقد اتهمت المدرسة الأمـريكية - آنذاك - بأنها لم تسهم بأي دور إيجابي نشيط في التعامل مـع ذلك التغير الاقتصادي/ الاجتماعي المأساوي البـاعث على اليأس ، فبينما كان المجتمع كلـه يعاني من البؤس والفقـر ، كانت المدرسة مستمرة في طـريقها العادي ، تقدم برامجها ومناهجها العادية ، وكأن شيئاً لم يكن ، أو كأن ما كان يجري خارج أسوارها لم يكن يعنيها . . !!

ومنذ ذلك الحين هـوجم هذا الأسلوب الـذي اتبعته المدرسة الأمريكيـة ، إبان أزمة الكسـاد العظيم ، وكتب المربون المهتمون بأن المدرسـة التي ينفق عليها المجتمع من أمـواله ، والتي يـرسل إليها أبنـاءه ، ينبغي أن يكون لها دور فعـال في العمل على حل مشكلات ذلك المجتمع ، ومواجهة مصاعبه .

هذا ولقد كتب بروفيسور كاونتس Prof George S. Counts بهذا المعنى إلى المؤتمر القومي للتربويين الأمـريكيين ، حول الدور الذي ينبغي أن تقـوم به التربية في التغير الاجتماعي ، وأكد على حتمية ألا تتخلى التربية عن القيام بهذا الدور .[1]

ولم يكن الأمر سهـلاً ، بطبيعة الحال ، بحيث تنـدفع المدرسة لتغير منـاهجها وخططها وأسـاليبها الدراسيـة ، بفعل كتابـات بعض العلماء والمهتمين ، وإنما الأمر المؤكد أنـه كانت لكتاباتهم آثـار واضحة ظلت تعمل في العقلية الأمريكيـة وتختمر ، حتى جـاءت الصـدمـة الكهـربـائيـة العنيفـة التي مست عصب الأمـة الأمـريكيـة الحساس، خـاصة وأنها جـاءت من الخارج متمثلة في « حمى سبـوتنيك» التي سبقت الإشارة إليها .

وانهال النقــد على التربيـة بمنــاهجهـا ، وعلى التربــويين بتفكيرهم ، وعلى

(1) Ibid., pp.76-77.

المدرسين بأساليبهم ، واتهمت التربية بصفة عامة بأنها لو كانت على مستوى المسؤولية لما تفوق السوفيت على الأمريكيين ، ولو كان التعليم الأمريكي جيد النوعية لما تفوق إيفانوف - كمثل على الطفل السوفييتي - على نظيره جون - كمثل على الطفل الأمريكي .

وكانت فترة الستينات هي الفترة الرائعة في حياة التربية الأمريكية ، حيث انغمست في مشكلات مجتمعها تبحثها ، وتحاول أن تقف على جذور تلك المشكلات ، وتحلل أبعادها وأسبابها ، وتستقصي آثارها وتتوقع نتائجها .

وأدخلت إلى المنهج موضوعات حساسة وخطيرة ، وبالتحديد في مناهج الدراسات الاجتماعية Social Studies . ولقد دار بعض هذه الموضوعات حول الظلم الاجتماعي ، والاضطهاد العنصري ، والتفرقة بين الأجناس ، وباقي العلل الاجتماعية ، والأمراض الأخرى التي يعاني منها المجتمع الأمريكي[1] . والذين يذكرون التاريخ جيداً يعرفون أن فترة الستينات بالتحديد ، كانت فترة عصيبة في حياة المجتمع الأمريكي وصلت إلى حد الصدام الخطير بين قوات البوليس وطلاب الجامعات الملونين وغيرهم من شباب الجامعات ، وكانت حرب فيتنام من أسباب ذلك .

هذا ولقد تبنى المجلس القومي للدراسات الاجتماعية The National Council of the Social Studies أنذاك دعوة مؤداها أن المدرسة ينبغي أن تلعب دوراً فعالاً في تحسين ظروف المجتمع ، وذلك عن طريق غرس المهارات المطلوبة في الأجيال الصاعدة للعمل على « إحداث التغير » الاجتماعي المطلوب في الأمة . . وليس فقط مواجهة ذلك التغير .[2]

(1) Daniel Tanner, Op. Cit, p.4.
(2) Daniel Tanner & Lourel Tanner, OIp. Cit,. p232.

وخـرجت فكرة عظيمـة حقاً تقـول بأنه لاحـدود للمنهج . . إلا حدود الحيـاة ذاتها (*)The boundaries of the curriculum would be the boundaries of life وكان معنى ذلك أن يمتد نشـاط المدرسة – والتربية بطبيعة الحال – لتشـارك في كـل شيء في المجتمع ، لأن الفصل بين المدرسـة ومنـاهجهـا ، وبين الحياة وما يجرى فيهـا ، فصل تعسفي اصطناعي معوق للتقـدم ، وإذا كان قد سمح به فيما مضى . . فلا يجب أن يستمر بعد الآن .

ولكي تضع المدرسـة الأمريكيـة ما سبق من أفكـار وآراء موضع التنفيـذ وضع خبراء المنـاهج نصب أعينهم أن تتضمن أساليب التـدريس الجديدة مـا عرف بـاسم «أسلـوب أو طريقـة حل المشكـلات Problem Solving Method ، بحيث يستطيع النـاشؤون الجدد أن يـواجهـوا مشكلاتهم التـي تعترضهم في الحياة كأفـراد ، وبحيث يسهمون أيضاً في حل مشكلات مجتمعهـم المحلية التي يعيشون فيها ، ومن هنـا تصبح المدرسة مـركزا حسـاسـاً يسعى لخدمة المجتمع ، ولا ينفصل عنـه ولا عن مشاكله ، كما قال بذلك ديوي وكاونتس . (١)

هذا ولقد اتبع ذلك الأسلوب التربوي الجديد ، في الولايات المتحدة الأمريكيـة ، مع طلاب العلم في المراحل الـدراسية المختلفـة ، كما اتبع أيضاً في مجال إدارة الأعمال ، ومجال البحث العلمي وعلاقته بالمشروعات التجارية الكبرى ، حيث أن الهدف هـو حل المشكـلات التي تـواجه الأفـراد ، عن طـريق تفتيت المشكلـة إلى عناصرهـا الأولية المكونـة لها ، ثم دراسة كل عنصر أو كل جـزئية على حدة للـوقوف

★ حول هذا المعنى راجع كتابي المؤلف :
- نزيف العقول البشرية .
- هجرة اللماء من العالم الإسلامي .
وقد سبقت الإشارة إليهما من قبل في هذه الدراسة .

(1) Daniel Tannr & Lawrel Tanner, Op. Cit,. p.2332.

على أين تكمن العقدة أو المشكلة .[1]

كـان هذا هـو حال المدرسـة الأمـريكية . . مـواجهة للتغير . . بل والسبـاق معه، بحيث تسبقه ، وتستعـد له ، وتسلح النشء الجديد بالأسلحة التي يـواجهونه بها ويتعاملـون معه ومع عناصره ، بل وأكثر من ذلك « إحـداث التغير » المطلوب في حياة الأمة [٢] .

ولكن الأمـر اختلف كثيرا جـداً في إحـدى مـدارسنـا ، التي فـاجأهـا التغير فأذهلها ، وأصابها بالشلل ، ولم تعـرف كيف تتصرف ، وظلت واقفة . . حائرة . . مـدهوشـة ، وهي تـرى المجتمع من حـولها يتغير بسرعـة ، وطلابها يسيرون في تيـار التغير الجديد . . ويتسربون منها واحداً وراء الأخـر . . حتى لم تجد منهم أحداً يريد برامجها . . ولا مناهجها . . . فأغلقت أبوابها . . وكانت مأساة . . . !!

ففي إحـدى قرى محافظـة الغربيـة بمصر ، وهي قريـة «شبرا ملّس» أُدخلت صناعة جـديدة على القرية ، هي صنـاعة الكتان ، واحتاجت الصنـاعة إلى الأيدى العاملة الرخيصة فلجأت إلى الأطفال والشباب الصغار .

وكان بالقـرية مدرسة ابتدائيـة واحدة ، وجد أطفالها في المصنع الجديـد فرصة طيبة لكسب شيء من المال ، يـدعمون به أسرهم الفقيرة ، فلم يترددوا . وكـان هذا تغيراً كبيراً جداً في حيـاة القريـة كلها . . فـالآباء بـدأوا يعملون . . وكـذا أطفالهم ، وازداد دخل الأسرة بشكل ملموس ، فازداد عدد المتسربين من المدرسـة . . يوماً بعد يـوم حتى لم تجد إدارتها بـداً من التفكير في إغـلاقهـا فترة ازدهـار صنـاعـة الكتـان

---

(1) Sandford W. Reitman, Society and Change, Allyyn & bacon Inc, Boston, 1981,p 32.

(٢) محمـد عبد العليم مرسي : المعلم . . والمناهج وطـرق التـدريس، دار الإبداع الثقـافي ، الريـاض، ط٢، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

. . وكانت قمة المأساة عام ١٩٦٤م عندما اضطرت المدرسة لإغلاق أبوابها تماما . . !!

المهم في هذه القصة الحقيقية ، التي جاءت في رسالة علمية موثقة ، أن الفلاحين الذين جذبهم الإغراء المالي لفترة من الوقت ، فسحبوا أبناءهم من المدرسة ، هؤلاء الفلاحون أنفسهم هم الذين أعادوا أبناءهم إلى المدرسة ، بل وأكثر من ذلك ، هم الذين تبرعوا لإقامة مدرسة متوسطة بجهودهم الذاتية . عندما هبطت حدة الازدهار الصناعي في قريتهم . .[1]

والعبرة التربوية والاجتماعية من هذه القصة ، هي أن المدرسة لم تستطع أن تواجه التغير الجديد في مجتمعها وكانت تستطيع أن تسهم فيه بطريقة أو بأخرى ، بحيث يستفيد طلابها من عناصره الجديدة ، وفي نفس الوقت لاينصرفون عنها ، والجانب الثاني هو أن أفراد المجتمع كانوا واعين لدور المدرسة ولحاجتهم إليها ، ولكن العوز المادي جعلهم يقفون منها موقفاً سلبياً . . أول الأمر ، حتى إذا مازال هذا العوز المادي . . عادوا إلى المدرسة مسرعين . . واعين . . فاهمين . . بل ومتبرعين من أموالهم الخاصه لإنشاء مدرسة جديدة ، على الرغم من مستوياتهم الاقتصادية المتواضعة . . !!

وبقى على أهل التربية ، والمخططين لها في مجتمعاتنا أن يعوا أبعاد التغير الاجتماعي والاقتصادي الذي يقع من حولهم ، وأن يضعوا في حسبانهم أن المدرسة ينبغي أن تكون هناك . . مع التغير . . وحوله . . بل وأمامه . . تقوده وتوجهه . . كما تفعل شقيقاتها في المجتمعات المتقدمة . . في شرق ، وفي غرب .

---

(١) عبد الفتاح الششتاوي : أثر الصناعة في القرية مع بحث ميداني لتوطن صناعة الكتان في قرية شبراملّس-غربية- رسالة ماجستير غير منشورة، آداب عين شمس، ١٩٧٢م.

هـذا وهنـاك بعض التربوين الـذين يتبنـون فكـرة مـؤداها أن التربيـة محافظـة بطبيعتها ، وأن من أهم وظائفها أن تحافظ على الذات الثقـافية للمجتمع الذي توجد فيـه ، ولكن بجـانب ذلك فـإنها ينبغي أن تعمل - قـدر المستطـاع - على ألا يكـون هناك إلا أقل القليل من التخلف الثقافي Cultural lag[1]

ومعروف أن هذا التخلف الثقافي نـاتج عن الاختلاف في معدلات السرعة التي يحدث بها التغير في أي مجتمع . إن التغير عنـدمـا يقع في أي مجتمـع تتأثـر أجـزاؤه ومكـوناتـه به ، ولكـن بعض الأجزاء يكـون تأثـرها أعمق وأسرع من غيرهـا ، وتبقى الأجـزاء الأخرى وهي أقل وأبطأ تأثـراً ، وهذا هـو ما يطلق عليـه مصطلح «التخلف الثقافي» .

ولقـــد ضرب علماء الإجتماع على ذلك أمثلـــة كثيرة مـن واقع المجتمعـــات الأوروبيـة ، حين أخـذت بالتصنيع ، فلقـد تقـدمـوا في الأخـذ بأساليب الصنـاعـة الميكانيكية الجديدة ، ولكن الجانب القيمي والأخلاقي كـان متأخرا متخلفاً ، خاصة حينما لم تصدر تشريعات عادلـة في نفس الفترة لتحمي حقوق العمال ، كما أنه لم تكن هناك قوانين تمنع استغلال الأطفال الصغار في بعض الأعمال الشاقة ، وكذا النساء .

إن دور التربية هنا هو تنبيـه المجتمع إلى ذلك النوع من التخلف ، وأن توضح لأفـراد مجتمعهـا مخاطـر وجـوده ، وأن تسهـم في مـواجهتـه . وعلى سبيل المثـال فإن السيـارات قـد كثـر استخدامهـا بشـدة في دول الخليج العـربي ، ولكن هنـاك آدابـاً وتعليمات وتـدريبـات كـان يجب أن تصـاحبهـا . . بل حتى تسبقهـا ، بحيث تقل حـوادث الطرق السريعـة وكذا حـوادث المرور داخل المدن ، والتي تصل إلى عشرات الألوف سنوياً ينتج عنها جرحى وقتلى كثيرون جداً .

---

(1) Ivory Marrish, Op. Cit,. pp.70-73.

ولـو أن شيئاً من التعليم لهذه الآداب والتـدريبات قـد سبق ركوب السيـارة ، إذن لكنـا وفرنـا للمجتمع طاقـات بشرية هـائلة يحتـاجها للتنميـة ، ذهب أفرادهـا ضحايا ما بين قتيل خسره المجتمع إلى الأبد ، وجريـح مقعد سوف يعيش باقي حياته متحسراً يحتاج من يـرعاه . . ولا ينبغي أن نغفل هنـا العنصر المادي أو الاقتصادي ، فالأمـة تنفق من أموالها مـلايين الدولارات ، وربما بلابينهـا - بسبب هذه الحوادث - على شكل سيارات محطمة ومصروفات للعلاج في المستشفيات . . إلخ .

لقـد كـان من الممكن للتربيـة أن تتدخـل هنا بـالعـلاج النـاجع ، كما فعلت زميلتها في المجتمع الأمريكي ، فتفرض مقررا معينـاً في قيادة السيارات ، لابد أن يمر خـلاله . . وينجح فيـه . . كل طالب في المرحلـة الثـانويـة ، وهو مقـرر يجمع بين الجانبين النظـري والعملي . . في كل شيء يتعلق بـالسيـارة وآداب قيـادتها ومهـاراتها المختلفـة . كما أن هــذه المدارس كـان يمكن أن تكــون أمـاكن لتــدريب المواطنين العاديين من غير طلبتها ، بحيث تعم الفائدة على طوائف أخرى من المجتمع .

ونحن هنـا في المنطقة العـربيـة - قلب العالم الإسـلامي - خـاصة وقـد ركزنـا حـديثنا على الجديـد . . وعلى التغير . . وعلى مـوقف التربية منهما ، يجب أن نكـون واعين ، ونحن نتحـدث عن الدور الخطير للتربيـة ، إذ أنها وهي تنغمس في الجديـد ومشكلاتـه وفي محاولة إيجاد الحلـول لها لا ينبغي أن تـدير ظهـرها لتراث الأمـة ، وما يحتويه من أسس وعمد للحاضر والمستقبل ، وهو التراث الإسلامي العريق .

إن التربيـة ينبغي عليها أن تبحث في هـذا التراث ، وأن تستخرج الحكمـة من بين كنوزه ، وأن تعمل على تنقيته مما قد يكون قد علق به من شوائب ، وذلك حتى لا نقع ضحايـا أزمة الأخذ بأسـاليب التقدم الحديثة التي لم نستعـد لها تماماً ، وفي نفس الوقت نفقد صلتنـا بماضينا التليد . إن معالم تلك الأزمـة عندنا تشبه إلى حـد ما معالم

الأزمة العالمية السائدة في الخارج بين الشباب ، إلا أنها تزداد عمقاً وخطراً ، إذا تذكرنا أنها تقوم في مجتمع ما يزال متخلفاً ، وما يزال بعيداً عن البنى العلمية والتقنية والصناعية التي نشهدها في العالم المتقدم . إن معنى هذا ، كما يقول أحد مفكرينا التربويين «إن مجتمعنا قد يحمل الغرم دون أن يصيب الغنم ، وقد يفقد الحسنيين معاً . . فلا هو أصاب التقدم التقني والصناعي الذي يدفع ضريبته وفديته ، ولا هو حفظ قيمه وتراثه وسلطان مؤسساته التقليدية» .(١)

وقبل أن نختم هذا الجزء الخاص بالعلاقة بين التربية والتغير ، ينبغي أن نشير إلى الرأي القائل بأن التربية في علاقتها بالتغير الحادث في المجتمع ، يمكن أن تكون عاملاً من عوامل التغير ، أو وسيلة من وسائله Agent ، كما أنها يمكن أن تكون شرطاً من شروط حدوثه Condition ، وفي نفس الوقت فإنها قد تكون أثراً من آثاره ، أو نتيجة من نتائجه Effect(2) .

أما كون التربية عاملاً Agent من عوامل التغير ، فمعناه أنها تربي الأجيال الصاعدة من أبناء المجتمع ، وتعلمهم وتدربهم على ما في المجتمع من قيم وعادات وتقاليد ، بحيث يفهمونها ويتعاملون مع بعضهم ، ومع الآخرين على أساسها ، وطبقا للمعايير التي ارتضاها المجتمع لنفسه ، وهذا هو الجانب الرسمي Formal لدور المدرسة .

ولكن هناك أدواراً أخرى تقوم بها المدرسة دون إعداد مسبق ودون قصد ، ونعني بذلك ما يتعلمه الناشئة من بعضهم عن حياة مجتمعهم ، إذ أن الشباب ،

(١) عبد الله عبد الدايم : الثورة التكنولوجية في التربية العربية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٤م، ص٦٥ .

(2) Donald A. Hansen & Joel E. Gerstle (Editors): On Education-Sociologcal Perspectives, John Wiley & Sons Inc,. N.Y,. 1967,p.70.

وحتى الأطفال ، يتعلمون أشياء كثيرة ، قد يطلق عليها البعض اسم أو مصطلح «المنهج الخفي The hidden curriculum» من خلال احتكاكهم اليومي ببعضهم ، ومن خلال معاملة الإدارة وهيئة التدريس لهم . وكل ذلك يمد هؤلاء الأطفال والشباب بخلفياتهم الثقافية التي توحد بينهم . . مواطنين ذوي لغة واحدة ، وعادات وقيم مشتركة ، بالإضافة إلى أنها تنمي إيمانهم بوطنهم الواحد . (1)

أن كل هذه التغيرات والتفاعلات التي تحدث في شخصيات الشباب الصغار إنما تجعلهم في مجموعهم ، من عوامل التغير ومن وسائله ، لأنهم يصبحون جاهزين لتقبله وللتعامل معه ، وللأنماط الجديدة التي يحضرها معه .

أما كون التربية شرطاً Condition من شروط التغير ، فهذا يعني أن المدرسة بإعدادها للمواطنين ، وتدريبها لهم على الأدوار التي سيقومون بها في مؤسسات المجتمع المختلفة ، حكومية وغير حكومية ، إنما توضح بجلاء أنه بدون إعداد هذه العناصر البشرية الإعداد السليم لايمكن للتغير أن يأخذ مكانه ، أو أن يسير في الاتجاه المرغوب فيه بنفس السرعة التي يتمناها المسؤولون أو يخططون له .

ونظرة متأنية إلى إحصائيات التعليم ، في دولة واحدة من دول الخليج العربي ، هي المملكة العربية السعودية ، تبين لنا الجهود الكبيرة التي بذلت في ميدان التعليم ، والتي كان من نتيجتها أن ازدادت أعداد المتعلمين من أبناء المملكة ، وتنوعت معاهد تعليمهم وإعدادهم ، بحيث حملوا - بعد تخرجهم - عبء التنمية والتقدم . . والتغير ، ولولا ذلك لتعثرت - دون شك - خطط التنمية ، إلى حد بعيد . . أو لتعطلت لبعض الوقت ، على أقل تقدير .

لقد ارتفعت أعداد الخريجين الحاصلين على درجة البكالوريوس من ١٨٨٥

---

(1) Ibid., P.86.

طالبا وطالبة عام ٩٤/ ١٣٩٥هـ إلى٣٧٧٩عام٩٨/ ١٣٩٩هـ ، ويقدر عدد الخريجين عام ٩٩/ ١٤٠٠هـ بحوإلى ٤٠٠٠ طالب وطالبة وفي أحدث الاحصاءات الصادرة عن المملكة أن الخريجين والخريجات قد بلغ ٩٣٨٢ عام ١٤٠٣/ ١٤٠٤هـ[١]

وهؤلاء الخريجون والخريجات أسهموا - بطبيعة الحال - في تطور وتنمية المجتمع السعودي ، في كل مجال من مجالات التنمية ، ابتداءً من التدريس إلى الطب ، ومن الهندسة إلى الزراعة ، ومن العلوم إلى الصيدلة ، ومن الشريعة وأصول الدين إلى اللغة العربية والعلوم الاجتماعية المتنوعة .

وهذا يؤكد على أن «مخرجات التربية» شرط أساسي ولازم للتغير وللتحرك نحو الأمام في كل مجال ، أخذاً في الحسبان ما يقدمه أصحاب هذه الكفاءات من خدمات لوطنهم . . كل في مجاله ، وما يقومون به من جهود تخدم الاقتصاد الوطني ، وتساعد على تنميته وتطويره . ولاننس في هذا المجال عشرات الآلاف من خريجي المدارس الثانوية بأنواعها المختلفة ، وخريجي الثانويات المعادلة .

وما يقال عن المملكة العربية السعودية ، يقال عن شقيقاتها الخليجيات ، بدرجات متفاوتة ، ويكفي أن بها الآن ثمان عشرة جامعة ، تمدها بالكثير من العناصر البشرية المطلوبة للتنمية ، بالإضافة إلى الكثير من معاهد ومراكز التدريب المتنوعة ، وكل ذلك مما يساعد على إحداث التطور والتغير . . والتقدم .

أما أن التربية أثر من آثار التغير الاجتماعي Effect ، ونتيجة من نتائجه فهذا معناه أن المجتمع المتغير ، سريع التغير ، يمد التربية بمؤسساتها المختلفة ، بكل ما

---

(١) خطة التنمية الثالثة ١٤٠٠-١٤٠٥هـ/ ١٩٨٠-١٩٨٥م، وزارة التخطيط -المملكة العربية السعودية، الرياض، ص ٢٤٨ .

تحتاج اليه من عناصر بشرية ، ومصادر مادية لازمة كي تؤدي وظائفها على الوجه الأكمل . وبقدر ما يكون اهتمام المجتمع بهذا الجانب . . بقدر ما يكون الناتج أو العائد من المؤسسات التربوية .

لقد اهتم المجتمع الأمريكي اهتماماً عظيماً بالإنتاج الزراعي ، ورأي مفكروه وصانعو القرار فيه أن الاهتمام بالتعليم الزراعي ، على كافة المستويات ، سوف يعود على المجتمع كله بالخير ، ومن هنا فلقد صدر قانون موريل Morril Act عام ١٨٦٢م الذي وهب ٣٠,٠٠٠ فداناً من الأراضي الحكومية تباع لصالح إنشاء وإدارة كلية للزراعة على الأقل ، في كل ولاية ، يكون من أهدافها الأساسية الاهتمام بالزراعة والميكانيكا المتعلقة بها[١]

ولقد اعتبر هذا القانون ، الذي صدر في الولايات المتحدة الأمريكية ، منذ أكثر من مائة عام ، اعتبر من أهم وأخطر القوانين التي دفعت بالتعليم إلى الأمام ، وخاصة التعليم الزراعي ، الذي جعل الولايات المتحده أكثر بلاد العالم إنتاجا في هذا المجال ، والذي كان من نتيجته جعل يد هذه الدولة هي اليد العليا في تعاملها السياسي والاقتصادي مع كثير من بلاد العالم ، خاصة تلك التي لايكفيها إنتاجها الزراعي ولايفي بحاجة مواطنيها .

وهذا المثل يبين لنا أن المجتمع في تطوره وتغيره واهتمامه بمؤسساته التربوية ، يدفع بتلك المؤسسات إلى الأمام ، وتعود هي فتسهم في دفع المجتمع إلى الأمام بفضل ما توفره من كفاءات بشرية ممتازة ، تتحمل أعباء التنمية في مجتمعاتها ، وبفضل إسهاماتها في ميادين تخصصها . . . وكل ذلك يدور في حلقة لا تنتهي من

---

(١) محمد عبد العليم مرسي : ترشيد جهود أعضاء هيئة التدريس في الجامعات الخليجية في مجال البحث العلمي، الندوة الفكرية الثانية لرؤساء ومديري الجامعات الخليجية ، جدة، رجب ١٤٠٥هـ/ إبريل ١٩٨٥م ، رسالة الخليج العربي، العدد ١٦، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، ص ص ٨٣-٨٤ .

التغير . . ومواجهة التغير ، ومن التقدم ومزيد من التقدم .

ويمكننا بطبيعة الحال أن نعمم هذا المثل على دول الخليج العربي ، فلقد أدركت أهمية التعليم بجميع مستوياته ، فرصدت له الميزانيات الضخمة ، واستقدمت له الكفاءات العالية من كل مكان ، وشيدت له الأبنية الكثيرة والعصرية ، وزودتها بالمعامل والمختبرات ، وكل ذلك في فترة تغيرها السريع ، التي أعقبت اكتشاف البترول واستخراجه ، وخاصة عندما ارتفعت أسعاره عقب حرب رمضان / أكتوبر المجيدة ، وكانت النتيجة أن بدأ التعليم يمد المجتمع الخليجي بمخرجات على شكل كفاءات بشرية ماهرة مدربة وعالية المستوى ، وإذن فهو أثر Effect واضح من آثار التغير الحادث في المنطقة .